الرضا في الدنيا والرضوان في الآخرة

سؤال: هل ثمَّةَ فرقٌ بين الرضا والرضوان؟ وما أهمُّ الوسائل للوصول إلى رضوان الله تعالى؟

الجواب: إن الرضا يكون من الله ومن العبد، وهو والرضوان بمعنى واحد، إلا أن الرضوان يعبَّر به عن الرضا الكثير، وأعظمُ الرِّضَا رضا الله تعالى، لذا خُصّ الرّضوانُ في القرآن بما كان من الله تعالى"[٤].

رضا العبدِ هو أن يرضى العبدُ عن الله ﷻ، وعن دين الإسلام المبين الذي وضعه ربُّه، وعن رسول الله الذي بلّغنا هذا الدينَ الحنيفَ، وأن يُذعِنَ قلبيًّا لكل ما قدّره الله، وأن يستقبلَ ما حلّ به من بلايا ومصائب بسكينةٍ واطمئنان، ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى مثل هذا الأفق من الرضا بقوله: "**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا**"[٥].

---

(٤) انظر: الراغب الإصفهاني: **المفردات في غريب القرآن**، مادة "ر ض ي".

(٥) صحيح مسلم، الإيمان، ٥٦.

ومـن خلال هذا البيان المبارك يكشـف النبي ﷺ مـن جهةٍ عن طبيعة العلاقة بين العبد وربّهِ، ويحدِّدُ لنا من جهةٍ أخرى الهدفَ الذي يجب علينا أن نصبـو إليـه؛ وفي قول مولانا تبارك وتعالى في مواضـع عدَّةٍ من القرآن الكريـم: ﴿رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (سورة الْمَائِدَة: ١١٩/٥) إشـارة إلى أن بلوغ أفق الرضا هو أسمى غاية ينبغي للمؤمنين الوصول إليها.

فمَن حرص على الرضا، وجعله دائمًا جُلَّ همِّهِ، وغايةَ آمالِهِ، وسـعى سعيًا حثيثًا في سبيله؛ ففي هذا دلالة على رضا الله تعالى عنه؛ لأن الله جَلَّ جَلَالُهُ إن لـم يـرضَ عن عبدٍ من عباده حرَمَهُ الشـعورَ بالرضا، وعلى ذلك يمكن أن يُقال إنّ مَن لـم يَرضَ عن الله تعالى وقضائه وقدره ولم يقابِل كلَّ مصيبةٍ تنـزل به بتسـليمٍ وطيبِ نفسٍ فهذا يُعدّ علامـةً واضحةً على عدم رضا الله تعالى عنه.

الرضوان: بشرى السعادة الأبدية

أمـا الرضـوان في الآخرة فهو الجزاء الـذي يتحصّل عليه العبد مقابل سـعيهِ وجُهـدِهِ في الدنيا لِنَيلِ مرضـاة ربّهِ، ولا يعزُبُ عـن عِلْمِكُم أنّ كلّ عبـادةٍ يؤدِّيها الإنسـانُ في الدنيا تتمثّل له نعمةً مـن نِعَمِ الجنة في الآخرة؛ أو كمـا يقول الأسـتاذ بديـع الزمان رحمه الله تعالـى: "إن كلمةَ "الحمد لله" التي يقولُها المؤمنُ في الدنيا تصيرُ ثمرةً مجسَّمةً في الآخرة"[٦].

أجل، إن الصائم الذي يصبر على الجوع والعطش في الدنيا سيحظى بالدخـول مـن باب "الرَّيَّان" في الآخرة[٧]؛ بمعنى أنه سـيصل إلى منبعٍ إذا شـرب منه فلـن يظمأ بعده أبـدًا؛ باختصار إن إيمان الإنسـان وسـلوكيّاته

(٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الحادية والثلاثون، الأساس الثالث، ص ٦٧٨.

(٧) انظر: **صحيح البخاري**، الصوم، ٤؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ٨٥.

في الدنيا تتدثر بمعانٍ مختلفة في الآخرة، إذ تتمثل أمامه أحيانًا نعمةً محسوسةً تُرى بالعين وتُمسَك باليد، وأحيانًا أخرى انشراحًا في الصدر، أو موجاتٍ تحمل نسائمَ الرضا.

ومن ثمّ فالرضوانُ هو الفضلُ والإحسان الذي لا حدودَ ولا شواطِئَ له، يأتي على صورة جسمٍ محسوسٍ ملموسٍ يمنّ الله به على عباده المؤمنين في الآخرة، وبعبارة أخرى فالرضوان هو نعمةٌ تفوقُ كلَّ التصوُّرات، يتفضَّل الله بها على عباده المؤمنين في دار السعادة الأبدية؛ إذ يسقي اللهُ أرواحهم منها؛ فيشعرون بنفحةٍ من الذوق الروحاني واللذة المعنوية التي تُنسيهم حتى نعيم الجنة.

أيّهما أعظم فضلًا: الرضوان أم رؤية جمال الله تعالى؟

وفي هذا الصدد قد ترِد على الأذهان مسألة: أيّهما أعظم فضلًا الرضوانُ أم رؤيةُ الله تعالى؟ فمن خِلالِ ما ذكره علماءُ أصول الدين ذوو الدراية الكبيرة بالكتاب والسنّة الصحيحة يمكننا أن نستنبط أن رؤية جمال الله هي من أعظم نعم الجنة، وقد عبر الشيخ سراج الدين الأُوشي ﷺ عن هذه الحقيقة في "بَدْء الأَمالي" وبيّنَ اعتقاد أهل السنة في هذا الأمر فقال:

يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ ... وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالِ
فَيَنْسَوْنَ النَّعِيمَ إِذَا رَأَوْه ... فَيَا خُسْرَانَ أَهْلِ الاعْتِزَالِ[٨]

ويقول الأستاذ النورسي ﷺ: "إن قضاء ألفِ سنةٍ من حياة الدنيا وفي سعادةٍ مرفَّهة، لا يساوي ساعةً واحدةً من حياةِ الجنة! وإن قضاءَ حياةِ ألفِ سنةٍ وسنةٍ بسرورٍ كاملٍ في نعيم الجنة لا يساوي ساعةً من فرحةِ رؤيةِ جمالِ الجميل سبحانه"[٩].

(٨) الأوشي: بدء **الأمالي**، البيتان ٢٠-٢١.
(٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقام الأول، ص ٢٧٨.

نعـم، إن رؤيـة جمال الله فضلٌ إلهيٌّ عظيم يَـبُزُّ نعيمَ الجنة، ومـع هذا فإنّ النبيّ ﷺ يقول:

"إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ!

فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيرُ فِي يَدَيكَ!

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُم؟

فَيَقُولُـونَ: وَمَـا لَنَا لَا نَرضَى يَـا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيتَنَا مَا لَـمْ تُعْطِ أَحَدًا مِن خَلْقِكَ.

فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُم رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"(١٠).

فخطابُ الله تعالى للمؤمنين في الجنة يدلُّ على أنّ الرضوانَ هو أعظمُ إحسانٍ يبعثُ الحبورَ والانشراحَ في نفس الإنسان لدرجةٍ تُنسيه رؤية جمال الله، ويُشْعِرُه بنسمات من الأذواق الروحانية التي يتعذّر تخيُّلُها وتصوُّرها.

وقد ذكر ربُّنا ﷻ صراحةً في سـورة التوبة أن الرضوان هو أعظمُ نِعَم الجنان فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة التَّوْبة: ٩/٧٢).

من طلبَ الرضا نالَ الرضوان

حاصـل القـول: إن رضا العبد عن ربه ورضوانَ الله عن عبده وإنْ كان كلٌّ منهمـا يعبّـر عن حقيقة مختلفـة نظرًا لتعلُّقِهما بالدنيـا والآخرة إلا أن بينهما علاقةً وطيدةً تُشْبِهُ علاقةَ السببِ بالمسبّبِ والعِلّةِ بالمعلولِ، فإذا ما

(١٠) صحيح البخاري، الرقاق، ٥١، التوحيد، ٣٨؛ صحيح مسلم، الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، ٩.

أعطيتم إرادتَكم الجزئيّةَ حقَّها في الدنيا، وعبَّرتم عن رغبتِكم في رضوان ربِّكم، وبذلتم جهدَكم في هذا السبيل شرَّفكم الله برضوانه نتيجةَ ما قمتم به من سعيٍ وجهد محمودٍ.

غير أن هناك أمرًا علينا أن نفهمَه على الوجهِ الصحيح ولا نغفل عنه وهو: أن العلاقةَ السببيّة والعِلّيّة بين هذين الأمرين لا تتوافق أو تنطبِقُ مع قانون السبب والنتيجة في العالم المادّيّ؛ لأنكم إن قطّرتم قطرةً واحِدةً من الرضا في الدنيا تتبخّر هذه القطرة وتَصَّعَّدُ في السماء وتعظُم حتى تصير بحرًا خِضَمًّا في الآخرة، بيدَ أن القطرة من حيث قانون السبب والنتيجة لا تفضي إلى بحرٍ ألبتة، ولكن الحقّ تبارك وتعالى بِلُطْفِهِ الذي لا حدَّ له وبرحمته الواسعة المُغدَقَة قد حوَّل رضاكم عنه الذي يُمثّل قطرةً في الدنيا إلى محيطٍ متلاطِمِ الأمواجِ في الآخرة.

جَناحان يوصّلان إلى الرضوان: إعلاء كلمة الله والإخلاص

إن من أقصرِ الطُّرُقِ وأعظمِ السبلِ التي توصّل الإنسانَ إلى إحراز رضا الله ورضوانِه إعلاء كلمة الله تعالى. أجل، إن تبليغَ كلمةِ الله وإعلاءَ شأنِها في كلِّ الأصقاع المظلمة من الأرض والعَدْوَ كالفرس العربي الأصيل دونَ تعبٍ ولا نصبٍ في سبيل أن تُرَفْرِفَ الروحُ المحمّديّةُ في كلِّ أرجاء العالم لَمِنْ أعظمِ الوسائل التي توصّل الإنسان على جناحِ السرعةِ إلى رضا الله، وعلى ذلك يمكن القول إننا وإن كنا نعتبر إعلاءَ كلمة الله وسيلةً للوصول إلى الرضوان فهي وسيلةٌ بمستوى الغاية.

فعلى الإنسان أن يهتمّ في جميع حركاته وسكناته بإحياء الآخرين، وأن يبذل وسعه لتتعلَّم الإنسانيةُ قواعدَ سلوكيّةٍ جديدةٍ، وأن يقتنِصَ الفُرَصَ في سبيلِ توجيه الإنسانية إلى الله تعالى، وأن يعشقَ هذه الوظيفةَ

ويتعلَّـقَ بهـا؛ حتى إنه إذا لـم يقدر على أدائِها نَدَبَ حظَّهُ واعتبر حياتَه التي يعيشها هباءً وعبثًا.

ولا جـرم أن على الإنسـان أن يكون مخلِصًا عنـد أدائه لوظيفة إعلاء كلمة الله حتى لا يخسـر في موقعٍ هو أدعى للكسـب، فالمُخلِص هو مَن يُجسِّـدُ الإخلاصَ في شـخصِه، لكن يجب عليه أن يركِّز تركيزًا تامًّا على مسـألة الإخـلاص هذه لدرجة أن يَتقالَّها ويسـعى سـعيًا حثيثًـا ليكون من المخلَصِيـن، والمُخلَـص هـو الذي يَصِلُ بفضل ربه إلـى درجة الخلوص والصفاء ويصفو ويصبح برّاقًا لامعًا حتى لكأنه هو الإخلاصُ عينُه، وهذه ميزةٌ خاصّةٌ بمن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (سـورة ص: ٣٨/٤٧) وعلى رأسـهم الرسـول الأكرم سـيدنا محمد ﷺ، ولكن ينبغي للمؤمنين أن يُسدِّدوا نظرَهم إلى هذا الأفق العظيم حتى يصلوا إلى هذا الهدف السـامي على مسـتوى "الظِلّية" -إذ إن مسـتوى "الأصليّة" منه خاصٌّ بالأنبياء عليهم السلام- وأن يتمثّلوا المرادَ الإلهيَّ دائمًا، ويُؤَدُّوا كلَّ عبادتهم كمـا أمرهـم ربُّهم، وألا يربطـوا عبوديَّتهم بأيِّ غايةٍ دنيويّةٍ، بل وينسـلخوا من كلِّ غرضٍ أخرويٍّ سـوى رضوان الله، وبعد ذلك يفوِّضوا نتيجةَ الأمر إلى الله تعالى.

وبذلك تبدأ طبيعة الإنسان الذي وصل إلى هذا المستوى من الشعور فـي إعطـاءِ ردِّ فعـلٍ تلقائـيٍّ حيالَ أيِّ شـيءٍ خـالٍ من الإخـلاص، فمثلًا نجد هذا الإنسـان لا يتشـوّف ألبتة إلى أيِّ غرضٍ دنيويٍّ كتقدير الآخرين واستحسـانهم حتـى وإنْ أحـرز نجاحًا يبهـر العيون، أو قـال كلامًا يُحرّك المشـاعرَ في القلوب، أو كتب مقالًا يمتدحه عليه فُحُولُ الأدَبِ والشِّـعرِ؛ فـإن ورد بخيالـه العفـويّ -ناهيك عن تصوُّرِه واسـتحضارِه- شـيءٌ آخر

سـوى الله تعالى؛ انزوى على الفور، واسـتغفرَ ربَّه من الشِّـرْكِ الخفيِّ، بل وعاتبَ نفسَهُ، ورمى بها في أحواض التوبة والإنابة والأوبة حتى يُخْرِجَها طاهرةً مطهرةً.

وهذا المستوى من الإخلاص هو من أهم الوسائل للفوز برضوان الله تعالى في الآخرة، فبِقَدْرِ تعمُّقِ الإنسان في إخلاصه في الدنيا بِقَدْرِ وصولِهِ سريعًا إلى رضوان ربِّه في الآخرة، وربما يعصمُه الله من هولِ القبر وفزعِهِ، فـلا يـذوق عذابَه ولا يتجرَّع معاناتِهِ؛ فاعتبارًا من اللحظة التي يوضـع فيها هذا الإنسـان في قبره يرتقي عموديًّا منتشـيًا في هذا الأفق بما متّعه الله من لطائفَ ربّانيّة.

ومـن ثـم على كلِّ مؤمن أن ينشـد وظيفةَ إعلاء كلمـة الله وأن يراعي الدقة البالغة عند أدائه لهذه الوظيفة من أجل الفوز بالإخلاص والمحافظة عليه.